المقتطف

أمادّة النفس ام جوهر مجرّد

وهي محاورة بين الطامح والكامح

قال الباحث ابن العصر فلما اجّل الكامح كلامهُ قصد كلٌّ منا مقامهُ وجعلت انتظر الأجل المحدود كالقوم القعود على النار ذات الوقود حتى اذا حانت الساعة لاحظني بالقى الجماعة خرجت اليهم أسعى فاذا كلٌّ قد أصغى وادار الكامح كاس الحديث فقال :

لا غروَ أيها الطامح انك سَبَرت من مذهبك اعمق لججهِ وضمّنت مقالتك اقطع حججهِ ولم تبالِ بادلّتك ولم تطنطن باقيستك لانك سردت ادلّتك على نسق يُفهَم ولم تهوّل بلفظٍ مبهم كالذين يتكلمون كثيرًا ويعنون قليلاً فليس من العدل ان انسب كلامك الى غير اقتناعك ولا اقول انك ممّن خالف حتى يُعرَف . الاّ اني طلبًا للانصاف لا ارضى منك بالحكم الجزاف . فقد ادّعيت أنّ انصارك علماء هذا الزمان كأنّ العلم مشدٌّ ازرك والوهم دعامة ظهري والحال انك لو عددت انصارك اليوم بالآحاد لعددت انصاري بالعشرات . فلو كنا في القرن الثامن عشر ومن حولنا فلاسفة الماديين لا ينسبون العلم الاّ لمن وافقهم على مذهبهم وناديت في مثل هذه الجماعة ان العلماء انصارك فربما جازت دعواك ولم نتازع فيها . اما الآن وشمس الحق لا يكسفها بهتان فما اسنادك مذهبك الى علماء هذا الزمان الاّ افتراء على اكثرهم وتلبيج لاسمهم وعلمهم عند رؤساء الاديان واصحاب الاغراض . واني لاحسب تيّار التهم الذي طما على علماء هذا الزمان — كأنّهم اصحاب الاغراض لهم بالكفر والضلال — قد اثارتهُ عليهم هوجاء الطامحين اكثر من ادلّة ابرع الماديين

الطامح . اراك اعنفت عن طريق البحث فما كلامنا الآن في ما يسكّت الجاهل او يرضي اصحاب الاغراض . وهب انهُ كان كذلك فانك تعلّمنا تعليمًا وخيمًا . أفتنكر الحق لجاري زيدًا او نرضي عبدًا لك . لو كان مذهبك الحق لكنت اوّل اللائذين اليهِ أرضى ذلك ام لم يرضِ لان الحق يقوّى ولن يُقوّى عليهِ ولكنك سالك غير طرق الحق والعلم طريق للحق فلاحقّ لك ان تجعل مذهبك عثرةً لطلاّب العلم

ط . وما دليلك على ان مذهبي غير الحق ان كنت من الصادقين

ك . ان دليلي ذو حدّين حيٌّ يقطع اصول دعاويك وحيٌّ يصون من المهاجم مذهبي فاعلم اولاً. ان النفس لا تكون مادة اذا قارنت الجسد أو لم نستطع ان نعرف شيئاً عنها بالعلم بعد انحلال الجسد. ولا انت تدّعي ان ذلك دليل والظاهر انك اردت به التدرّج الى باقي ادلّتك

ثانياً. انك جمعت في ادلّتك الثلاثة التابعة اقوى ما في مذهبك فقلت في دليلك الثالث ان كل ما تعرفهُ النفس وتنفعل به انما تعرفهُ بالحواس الخمس فقط . وهذا قول الماديين منذ قام ابيكوروس اليوناني الى ايامنا هذه فانهم كلهم يضربون على سندان واحد حتى قال فيهم بعض كتبة الجرمانيين حديثاً "ان العلوم ازدادت ازدياداً عجيباً ولكن الماديين لم يزالوا حيث غادرهم ابيكوروس". وانت لا ريب تذهب مذهب اكثرهم انهُ اذا وقع الضوء على العين هزّت امواج الاثير دقائق عصب البصر وانتقل هذا الاهتزاز الى دقائق الدماغ فحصل من ذلك الوجدان بادراك المرئي وبان الرائي هو المدرك وهكذا نقول في سائر الحواس مدّعياً ان الادراك هو اهتزاز دقائق الدماغ لا غير وكل افعال النفس انما هي اهتزاز دقائق الدماغ ممّا يؤثّر فيهِ من المؤثّرات الخارجية. فاذا ابطلت لك هذه الدعوى نقضت اوطد اركان مذهبك وغادرت باقي ادلتك هباءً منثوراً

ثالثاً . لو كانت كل افعال نفوسنا اهتزازاً في الدماغ فقط ممّا يؤثّر فيهِ من الخارج لوجب ان المؤثّرات المتشابهة تؤثّر فيها تاثيرات متشابهة والواقع بخلاف ذلك . فان كان لك عدوٌّ اسمهُ حبيب وقيل لك جاء حبيب فاذا ظننتهُ عدوّك انقبضت نفسك وتقطّبت سحنتك واذا ظننتهُ حبيباً لك انبسطت نفسك وابرقت اسرّتك فلفظ حبيب واحدٌ ولكن تاثيرهُ فيك يختلف حسبما تحملهُ عليهِ نفسك من المعنى . وهذا فضلاً عن انهُ يخالف دعواك بشهد بان ليس كل ما عند النفس هو من المحسوسات لان معاني الالفاظ غير محسوسة

ولو كانت افعال النفس لا تحصل الاّ من المؤثّرات الخارجية لوجب ان تكون افكار الانسان دائماً حسب ما يؤثّر فيهِ . والواقع ان الانسان قد يفتكر بغير ما يؤثّر فيهِ فربَّ جالس في جنّةٍ بديعة الازهار غضيضة الاثمار شهيّة الاثمار يغوص في بحر التفكر بالمفاوز ومبارزة الاقران ومكافحة الفرسان وهو يتنسّم طيب الهواء ويسمع خرير الماء. فلم تشتغل نفسهُ في غير ما امامهُ من المؤثّرات ان كانت النفس ليست الاّ اهتزازاً في الدماغ

ولو كانت النفس كما تدّعي وكلُّ معارفنا من المؤثّرات في الحواس فكيف نعلل القوة الذاكرة ونحن نعلم ان دقائق الدماغ تُدثر على الدوام ويتجدّد غيرها فيقوم مقامها . فلو كانت الذاكرة مجرّد تاثير محسوس في تلك الدقائق لاقتضى زوالها عند دثور الدقائق. فكان السائح في بلاد بعيدة لا يرجع منها

الى بلادهِ حتى يكون قد نسيها في طريقهِ بل نسي انهُ كان فيها. والواقع ان اكثر الامور تنطبع على ذهن الانسان طول ايامهِ فتحضرها الذاكرة متى شاءت

ولو كانت النفس هي الدماغ وكانت كل معارفها من تاثير المحسوسات فيهِ لم تعلّل البديهيّات فينا وباتي تجريدٍ او تعميمٍ نعلم ان الكل اكبر من جزئهِ وكيف نعلم بلا نظر وكسبٍ ان الاشياء المتساوية اذا اضيفت اليها اشياء متساوية فمجموعاتها متساوية. وايُّ طفلٍ لا يعقل ذلك عند بلوغهِ سن العقل. هذا وليس يخفى عليَّ ما تخيّلهُ اصحاب مذهبك من العلل المتنوّعة التي لا تفي بمرغوبهم حتى انهُ لا يتفق اثنان منهم عليها. نعم انهُ لولا الحواس لكانت النفس لا تنتبه فينا لفعل شيءٍ من افعالها ولكنها متى تنبّهت بالحواس صارت فاعلاً مستقلاً لافعال عديدة كما انها تنفعل من الحواس. فكل ما اوافقك عليهِ هو ان الحواس تنبّه النفس ولكنها ليست علةً لها

رابعًا. قل لي أيقنعك رايُ هرتلي الانكليزي ومن يذهب مذهبهُ ان الشعور — اي ادراك الدماغ لتاثير المحسوسات فيهِ — اذا تكرّر على الدماغ المرّة بعد المرّة صار من طبعهِ ان يتولّد فيهِ من تلقاء نفسهِ ولو غاب الجسم المؤثر عن الحواس. وان الفكر هو هذا الشعور الذي صار من طبعهِ ان يتولّد من نفسهِ في الدماغ. وانهُ اذا تولّد نبّه غيرهُ من الافكار بما بينهُ وبينها من الإلفة. وانهُ من ائتلاف افكارنا تتولّد كلُّ قوانا العقلية وانفعالات نفوسنا ومشيئتنا. فكيف — ارشدك الله — يصير هذا الاهتزاز — او هذه الحركة — شعورًا ثم يصير هذا الشعور عقلاً وانفعالاً وارادةً

ط. أغريبٌ انت عن دار العلم او لم تسمع بالناموس الشهير الذي نقرّر حديثًا عن بقاء القوّات واستحالتها بعضها الى بعض

ك. اني علمت انك ضمّنت ذلك في ادلّتك فوافيتك اليهِ فهلمّ ابسطهُ امام الجماعة

ط. لا يخفى ان كل مادّةٍ فيها قوة مادية وكل قوةٍ مادية لا تكون الاّ في المادّة. وكل القوات المادية كالنور والحرارة والكهربائية والمغنطيسية والالفة الكيميّة يستحيل بعضها الى بعض فالنور يستحيل الى حرارة والحرارة الى نور وكذا البواقي. واذا استحالت قوةٌ الى قوةٍ اخرى بمقدار ما يستحيل منها يبقى هو هو لا يزيد ولا ينقص. فاذا اوقدنا غصنًا من شجرة اظهر من النور والحرارة بقدر ما انتقتهُ الشمس على اغانيهِ من ضيوئها وحرها. نعم ان ذلك لغريب ولكن اغرب منهُ ان هذه القوات كلها اضرُب من الحركة فالنور حركة تنتقل من جواهر الجسم المنير الى جواهر الاثير ومنهُ الى عصب البصر والدماغ والحرارة حركة تنتقل من الجسم الحار الى جواهر الاثير ومنهُ الى اعصاب الحس العام في الجسد. فاذا كان النور ضربًا من الحركة والحرارة ضربًا آخر والكهربائية آخر فما المانع ان يكون الفكر ضربًا من الحركة والانفعال ضربًا آخر والارادة آخر. ووجه المشابهة بين قوة النفس وقوة الحرارة واضح غاية الوضوح.

فان الفم يسيّر السفينة بما يولّدهُ من الحرارة التي تستحيل الى حركة والطعام في الانسان يحترق فيولّد حرارة ايضاً تستحيل الى قوة عصبية فتتحرّك بها اعضاء الجسد والى قوة نفسية فيفكر بها الانسان وينفعل ويريد . فكما ان الوقود يحرّك السفينة بما فيهِ من قوة الحرارة كذلك الطعام يحرّك الجسد ويمنحهُ العقل والارادة بما فيهِ من القوة المادية . ولا يخامرك ريبٌ في هذا التمثيل فقد ثبت بالادلّة القاطعة ان كل فكر يفتكرهُ الدماغ تتولّد منهُ حرارة لان الفكر يستحيل الى حرارة

ك . اذا ثبتت دعواك بكون النفس قوة مادية كسائر القوات المادية فالارجح انك حللت المشكل وابنت لنا كيف تتحوّل الحركة الى شعور وادراك . وانما قلت الارجح لانهُ لا يخفاك ان بعض جهابذة العلماء لا يسلّمون بكون الجاذبية حركةً لانها تفعل على كل الابعاد في وقتٍ واحدٍ وهي مع ذلك قوة مادية . ولكن شتّان بين الحق وبين ما تدّعيهِ . فانت تدّعي انّ القوة العصبية والقوة العاقلة في الطعام كما ان قوة حركة السفينة في الوقود . ولكن قل لي ما الذي يدير هذه القوة العصبية في الانسان فيستعملها تارةً ويهملها اخرى . فان كنت يا هذا تسلّم بان قوة الوقود لا يمكنها ان تدير السفينة من نفسها بل لا بدّ لها من ناخذاة يديرها فلم لا تسلّم بان قوة الطعام وغيرهِ لا تدير سفينة الجسد من نفسها بل لا بدّ لها من ناخذاة النفس يديرها كيف شاء . واما زعمك أن الفكر يستحيل الى حرارة لان كل فكر تحدث معهُ حرارة فناسد لجعلهِ المعيّة عين الذاتيّة . فالخجل تحدث معهُ الحمرة والوجل الصفرة والحزن يُذرَف لهُ الدمع أفتقول ان الخجل استحال الى حمرة والوجل الى صفرة والحزن الى ماء وملح

خامساً . والادلّة عديدة على ان قوى النفس ليست بقوًى مادية . منها ان كل القوى المادية تقبل القياس إمّا بالوزن او بالسرعة او بتاثيرها في الحواس واما قوى النفس فلا تقاس بقياس ولا يتصوّر قبولها للقياس . فما لا يقبل القياس ليس كمًّا وما ليس كمًّا فمحال ان يكون قوةً مادية * ومنها انهُ اذا استحالت قوة مادية الى قوةٍ اخرى بقي مقدارها واحداً . واما قوى النفس فلا يصدق عليها ذلك لان الانسان قد يرى الشيء لمحةً فيضطرب منهُ اضطراباً عقلياً عظيماً يفضي الى اعمال جسدية عنيفة يعملها زماناً طويلاً . فعلى مذهبك يستحيل فيهِ النور الذي رأى بهِ ذلك الشيء الى قوةٍ عقلية والقوة العقلية الى قوة عضلية فتكون قوة النور اللطيفة قد استحالت الى قوة اعظم منها جداً وهو محال * ومنها ان القوى المادية كلها غير عاقلة فتفعل افعالها قسراً ولا تقصد غاية ما تفعله . واما قوى النفس فعاقلة حرّة مختارة تقصد ما تفعله غايةً قد سبق رسمها في ذهنها . فلو صحّ مذهبك لكان كلٌّ من الحاضرين عبداً للضرورة مطواعاً للدواعي الخارجية اسيراً للبواعث النسبيّة . فلا يفعل فعلاً من تلقاء ارادتهِ ولا يفضّل امراً من تلقاء اختيارهِ بل انهُ كالآلة تتغالب عليها القوات فالتي تغلب تديرها . ولكنّ وجداني يشهد لي ووجدان كل احدٍ يشهد لهُ اني اذا فكّرت في امرين ووزنت منافعها واضرارها فلي تمام الحرية ان اختار ايّهما شئت

ولست عبدًا لنواعث بل سيّد عليها . ولا يزعزع اساس وجداني هذا فلسفة في العالم الّا البرهان القاطع على خطائه * هذا وقد ضمّنت في ما ذكرت ردًّا وافيًا على باقي ادلّتك فلا حاجة الى اطالة الكلام . فان الخوض في هذه المسائل له اوّل ولكن ليس له آخر . فخذ مني خلاصة القول واختر لنفسك ما يحلو فانك حرٌّ بالخيار وان انكرت ذلك

ان كانت النفس ليست بالدماغ ولا اعراضهُ تصدق عليها . وان كانت اوصاف القوى المادية لا تصحّ على اوصافها ولا تُعلَّل بتلك القوى افعالها وقواها . فالنفس غير المادّة اذ لا شيء فيها من اوصاف المادّة . ذلك فضلاً عن ان وجدان كل انسان — اي علمهُ بنفسهِ وبما تدركهُ نفسهُ — يشهد بان نفسهُ ممتازة عن كل الاجسام والقوى المادية وافعالها تصدر عن شيء غير ما لهُ امتداد في جهة من الجهات وغير الدماغ وغير الجسد . وعلى ذلك فاني لم ازل اقول بان النفس جوهر بسيط مجرّد عن المادّة وحسبي ما نازلت بهِ في هذا السجال فقد طال بنا المقال حتى اعياني الكلال واعترى الجماعة الملال

قال الباحث فاسدت الجماعة الثناء وانصرفت تمشي الهوينا فخرجتُ على خلاف ما ولجتُ ولكن زدت في البحث ولعًا لعلي اجد فيهِ شبعًا

حاسّة السمع

لا بدّ لنا قبل الخوض في شرح السمع ووصف آلتهِ من تمهيدٍ وجيز نبيّن فيهِ كيفية حدوث الاصوات وانتقالها بالموصلات المختلفة وفعل تلك الموصلات بها فنقول . الصوت اهتزاز في الاجسام المصوتة يمكن نقلهُ من مكانٍ الى آخر بالاجسام الجامدة والسائلة والهوائية الّا ان سرعتهُ وقوتهُ تكونان في الاجسام الجامدة اشدّ منهما في السائلة وفي السائلة اشدّ منهما في الهوائية . فاذا انتقلت هذه الاهتزازات من موصلٍ الى آخر بخالفهُ في الكثافة ضعفت قوتها كشأن كل القوات المتنقلة ما لم يتوسط بين الجسم الهوائي والسائل غشاءٌ متوتّر فانهُ يزيد قوتها ولاسيما اذا اتصل بهِ جسم جامد قصير ملامس للسائل من طرفهِ الثاني . والاغشية المتوترة اصلح الاجسام لنقل الاصوات في كل حال . والجسم المحاط بمادة تخالفهُ في الكثافة يسير الصوت فيهِ بقوة لانهُ يمتنع تفرقهُ في الجسم المجاور . وللصوت درجات بحسب عدد الاهتزازات في وقت مفروض فاذا نُقِر جسمٌ فصات صوتًا مفروضًا صات نفس هذا الصوت كلما نُقِر والذي يخص غرضنا من ذلك انهُ اذا صات جسمٌ وكان بالقرب منهُ جسمٌ آخر صوتهُ كصوتهِ يصوت هذا ايضًا من تلقاء نفسهِ . مثلاً اذا نُقِر وتر عود وكان بالقرب منهُ عود آخر فيهِ وتر صوتهُ كصوت الوتر المنقور صات هذا ايضًا كالصوت الاوّل حتى اذا سُلِك الوتر الاوّل فانقطع صوتهُ بقي صوت الثاني مسموعًا